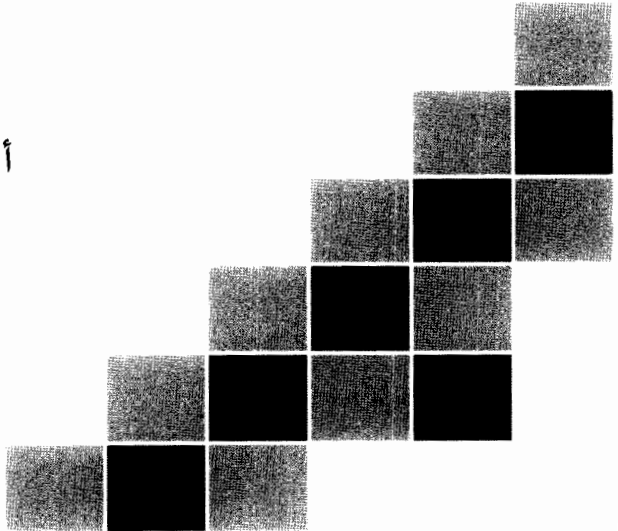




أثر حركة الجامعة الإسلامية في الخليج العربي والمغرب الأقصى

أ. حمد بن عبدالله العنقري
دائرة الملك عبدالعزيز
المملكة العربية السعودية



يدور محور هذه الدراسة حول معرفة الأثر الشعبي لحركة الجامعة الإسلامية في بلاد المغرب الأقصى وسواحل الخليج العربي، ومرادي بسواحل الخليج العربي هي المنطقة التي تشغلها دولة الإمارات العربية الحالية. ولا تعنى هذه الدراسة بالبحث حول تفاصيل أهداف حركة الجامعة الإسلامية أو ماهيتها أو مدى أثرها على الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية، إنما ينصب الاهتمام حول أثرها فقط في المنطقتين السابقتين من خلال وثائق الأرشيف العثماني فقط. ولعل من أهم الأسباب التي جعلتني أبحث في أثرها^(١) في هاتين المنطقتين أنهما مناطق لم تدخل في النفوذ العثماني، فالمغرب الأقصى لم يدخل قط في يوم من الأيام تحت النفوذ العثماني، حيث كان مستقلاً عنها أيام الدولة السعودية ثم العلوية، أما منطقة الخليج العربي فإنها لم تدخل في اهتمام الدولة العثمانية سوى أيام السلطان سليمان القانوني وحملاته لتطهير الخليج العربي من البرتغاليين، ثم محاولات مدحت باشا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي لمد النفوذ العثماني إليه، واصطدام ذلك المد بالنفوذ البريطاني المتصاعد، ولذا لم تدخل ضمن أملاك الدولة العثمانية.

يضاف إلى ذلك أن كتاب هذه الرسائل هم من سكان منطقة المغرب الأقصى وسواحل الخليج العربي، وكتبوا رسائلهم باللغة العربية، ومصدر وثائق هذه الدراسة الأرشيف العثماني، حيث توافرت ثلاث وثائق مرسلة

(١) يعبر الباحث عن شكره وتقديره لمعالي الأستاذ عبدالوهاب بن منصور - رحمه الله - مؤرخ المملكة ومدير مديرية الوثائق الملكية بالرباط، والأستاذ أبو بكر بن منصور مدير المطبعة الملكية بالرباط، والدكتور محمد أمين الأستاذ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس على مساعداتهم الجمّة، والشكر والتقدير لمعالي الدكتور فهد السماري على دعمه ومساعدته.

من المنطقتين يمكن الإفادة منها في معرفة أثر حركة الجامعة الإسلامية وصداها في سواحل الخليج العربي والمغرب الأقصى، وعن رؤية أهالي وسكان المنطقتين للسلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م).

وحركة الجامعة الإسلامية لم تظهر كفكرة في معترك السياسة الدولية إلا في عهد السلطان عبدالحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبدالحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م. فبعد أن التقت السلطان عبدالحميد أنفاسه وتولى بنفسه قيادة الدولة العثمانية، اهتم بفكرة الجامعة الإسلامية، التي أراد لها أن تحقق أهدافاً معينة هي: محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا عند حدها، عندما تجد أن المسلمين قد تكتلوا في صف واحد، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعمارية ووقفوا ضدها بالوحدة الإسلامية. والسعي إلى إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية، يحسب له حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي - الأوروبي. وبذلك تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية. وتستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها، وبذلك يمكن إعادة تقويتها وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة في الميادين كافة، ليتمكن عن طريق ذلك إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صورياً. وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدة شعورية بين شعوب المسلمين جميعاً، يكون السلطان هو الرمز والموجه والموحد^(١).

(١) حرب، محمد: السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ١٦٨ - ١٦٩.

ومن هذه المنطلقات كانت فكرة حركة الجامعة الإسلامية عند السلطان عبدالحميد الثاني، ولذلك سعى إلى تعميم هذه الفكرة في العالم الإسلامي، بعد أن هيأ لها الشروط الموضوعية - حسب تقديره- للحيلولة دون توغل الأوربيين في الدولة العثمانية، والسعي إلى إحكام سيطرة السلطان على الولايات العربية وغيرها من الولايات. ولذلك حاول السلطان وخز الضمير الإسلامي في الداخل والخارج لعلّه يظفر بنصير لمواجهة القوى الأوروبية، إلا أن الأزمات الداخلية حالت دون بعث عناصر ديمومة فكرة الخلافة الإسلامية، ورغم المصاعب المحيطة به من كل جانب لم يثن وقام بأعمال جبارة لم يكتب لها النجاح المنتظر^(١).

وأرى أن من المناسب قبل الحديث عن هذه الرسائل الثلاث، وأثر حركة الجامعة الإسلامية فيها التعرض بشيء من الإيجاز للأوضاع العامة في المغرب وفي سواحل الخليج العربي في تلك الفترة.

الأوضاع العامة في المغرب:

إذا كانت المرحلة التي سبقت السلطان عبدالرحمن بن هشام (١٢٣٨-)

(١) للتفصيل حول حركة الجامعة الإسلامية انظر: العمران، عبدالعزيز بن عبدالرحمن: الوحدة الإسلامية في الشعر العربي الحديث منذ عهد السلطان عبدالحميد إلى قيام الجامعة العربية ١٢٩٣ - ١٣٦٥ هـ / ١٨٧٦ - ١٩٤٥ م، مكتبة العبيكان، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م. سالم، عبدالرشيد عبدالعزيز: دولة الخلافة وشعر الوطنية من سنة ١٨٨٢ إلى ١٩٣٦ م، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. الشوابكة، أحمد فهد: حركة الجامعة الإسلامية، دار المنار، عمان، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. نصر، نصر الدين عبدالحميد: مصر وحركة الجامعة الإسلامية من عام ١٨٨٢ - ١٩١٤ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م. العجيلي، التليلي: صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي (١٨٧٦ - ١٩١٨ م)، دار الجنوب، تونس، ٢٠٠٥ م.

١٢٧٦هـ / ١٨٢٢-١٨٥٩م^(١) قد عرفت - نوعًا ما - توالي ولاية العهد بطريقة سلسلة، فإن المرحلة التي سبقت الحماية الفرنسية للمغرب (١٣٣٠هـ / ١٩١٢م) عرفت أزمة في الخلافة، والسبب في ذلك مرجعه إلى الظروف التي أحاطت بتولي السلطان عبدالعزيز (١٣١١-١٣٢٦هـ / ١٨٩٤-١٩٠٨م)^(٢)، ثم بعد ذلك بسبب سياسته الخرقاء، والغضب الشعبي الذي عم البلاد بسبب الاختراق الأوربي.

كان عمر السلطان عبدالعزيز أربع عشرة سنة^(٣) عند وفاة والده السلطان الحسن الأول (١٢٩٠-١٣١١هـ / ١٨٧٣-١٨٩٤م) فبويع من طرف الحاجب أحمد بن موسى بن أحمد المشهور بـ «باحماد» (١٢٩٦-١٣١٨هـ / ١٨٧٩-١٩٠٠م)^(٤) سلطانًا على المغرب، وقد ولاه باحماد

(١) انظر ترجمته في: ابن زيدان، عبدالرحمن: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، المطبعة المغربية الأهلية، الرباط، ١٣٧٤هـ، ٢ / ٥ - ٢٧٤.

(٢) حول فترة السلطان عبدالعزيز وحكمه انظر: أعمال الدورة الثامنة لجامعة مولاي علي الشريف والتي كان موضوعها عن: السلطان عبدالعزيز، مركز الدراسات والبحوث العلوية ووزارة الثقافة، الرباط، ٢٠٠٣م. المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى: الحل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، تحقيق إدريس بوهليلة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ٢٠٠٥م، ٢ / ٢١٧ - ٢٧٤. ابن زيدان، عبدالرحمن: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، المطبعة المغربية الأهلية، الرباط، ١٣٧٤هـ، ١ / ٣٧٨ - ٤٤٨. الخلوفاي، محمد الصغير: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره دواعي الإصلاح والتنظيم، مطبعة المعارف، الرباط، ط٢، ١٩٩٥م. بنعدادة، آسية: الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجًا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م، ص ٣١ - ٤٣، ١٢٥ - ١٤٠.

(٣) ولد السلطان عبدالعزيز في ١٨ ربيع الأول ١٢٩٨هـ / ١٨ فبراير ١٨٨١م.

(٤) انظر ترجمة باحماد في: بوعشرين، الحسن بن الطيب بن اليماني: التنبيه المغرب لما آل إليه الآن حال المغرب، تصحيح محمد المنوني، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع،

دون استشارة العلماء وأهل الحل والعقد. وهذه الطريقة السريعة في التولية كان السبب فيها الموت المفاجئ للسلطان الحسن الأول، إضافة إلى طموحات وأطماع الحاجب باحماد، وهو ما أثار ردود فعل غاضبه ضد ما حصل، أما حاشية السلطان السابق فقد كان فيها مجموعة معادية لأطماع وطموحات الحاجب أحمد بن موسى، وتسعى لعرقلة جهوده، وذلك لأجل تعيين الابن الأكبر للسلطان الحسن وهو الأمير محمد.

ولذا سارع باحماد إلى إقالة الأمير محمد ومن حالفه من الحاشية من مهامهم وأدخلهم جميعاً السجن، كما قام أيضاً بحملات ضد كل من قبائل الرحامنة وتادلة التي حالفت الأمير محمد وطالبت بتولية^(١).

ظل السلطان عبدالعزيز مهمشاً طوال السنوات الست الأولى من طرف باحماد، وفجأة يجد السلطان الشاب نفسه أمام مسؤوليات جسيمة بعد وفاة باحماد عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م^(٢)، ومع كون السلطان يتميز بالفطنة والذكاء وحب الاطلاع والرغبة في إدخال الإصلاحات؛ فإنه أراد أن يسير أمور الدولة بنفسه دون الاستعانة بأحد، بالرغم من أنه لم يتهياً لهذه المهمة، إضافة إلى أن المخزن كان منقسماً إلى جماعات وطوائف متعارضة المصالح.

كان المحافظون وعلى رأسهم الصدر الأعظم^(٣) ووزير الخارجية

= الرباط، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، ٤٢ - ٦٢. ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ١ / ٣٧٢ - ٣٩٦، ٤٥٤ - ٤٥٥. الشابي، مصطفى: النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٥م، ص ١٦٨ - ١٧٤.

(١) المشرفي، المصدر السابق، ٢ / ٢١٨، ٢٢٦ - ٢٢٧. بوعشرين، المصدر السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك عند: ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ١ / ٣٩٦ - ٤٥٥.

(٣) الصدر الأعظم لقب أطلق على الوزير الأكبر والأول في النظام الإداري بالمغرب،

السيد محمد المفضل بن غريظ يرون أن صالح المغرب وأمنه إنما يتم بالتعاون مع فرنسا، في حين يرى وزير الحربية المهدي بن العربي المنبهي^(١) ضرورة القيام بإصلاحات بالتعاون مع بريطانيا وألمانيا، لكن في النهاية كان هؤلاء جميعاً معارضين لأية إصلاحات حقيقية يمكن أن تؤثر على مصالحهم الشخصية^(٢).

ولذا فقد كان هدفهم تهميش السلطان الشاب، وشغله عن مصالح الدولة، بإشغاله باللهو واللعب والاهتمام بالمخترعات الجديدة والغريبة عن مجتمع المغرب في تلك الفترة، بما يبعده عن التفكير في الممارسة الفعلية لإدارة شؤون الدولة. فقام هؤلاء الوزراء بتوفير الألعاب للسلطان وأغرقوه بمستجدات التسلية مما أوجد لديه ميلاً لمظاهر الحضارة الغربية بإيجابياتها وسلبياتها^(٣).

= وأول من أنشأ هذا المنصب هو السلطان الحسن الأول، وتولاه وزيره الحاج المعطي الجامعي، وإطلاق هذا اللقب على الوزير الأول كان مقتبساً من النظام الإداري بالدولة العثمانية. وللتفصيل انظر: «ظهير شريف بتأسيس الوزارة المخزنية»، الجريدة الرسمية، س ١، ع ١، (٢٣ صفر ١٣٣١هـ / ١ فبراير ١٩١٣م)، ص ١-٢. ابن زيدان، عبدالرحمن: العز والصولة في معالم نظم الدولة، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ١ / ٤٣، ٢٧١ - ٢٧٢. ابن عبدالله، عبدالعزيز: تاريخ المغرب، مكتبة السلام، الدار البيضاء، د. ت، ٢ / ٧٣ - ٧٤.

(١) انظر ترجمته في: ابن منصور، عبدالوهاب: أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٩م، ٢ / ٢.

(٢) ابن الصغير، خالد: بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب (١٨٨٦-١٩٠٤)، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٣م، ص ٥٢٢. وحول الصراع بين الوزراء انظر: المشرفي، المصدر السابق، ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٤، ٢٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ٢ / ٢٢٤، ٢٧١. ابن عبدالله، المرجع السابق، ٢ / ٩٧-٩٨. وحول سوء تصرفات السلطان عبدالعزيز انظر: إبراهيم، حافظ: ديوان حافظ إبراهيم، دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٧م، ٢ / ٦.

وقد أسهمت هذه الوسائل في تهيئة الأجواء المناسبة للتأثير السيئ على حكم السلطان عبدالعزيز، وتشويه صورته في أعين الناس والمجتمع^(١)، ويصف الشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (١٢٩١- ١٣٧٦هـ / ١٨٧٤-١٩٥٦م) ما آلت إليه أوضاع المغرب في تلك الفترة، فيقول: «ثم السبب الأعظم في الانكسار فساد قلوب رعية مولاي عبدالعزيز، واتهامهم له بالفسق والكفر، حتى احتاج لجعل محضر كتب فيه علماء فاس إشهاداً لمعاينتهم له يصلي التراويح ليلة سابع وعشرين رمضان، معترفين بوجوب طاعته التي كانت في أعناق الأمة، واتهامهم له بميله للإنجليز، وبيعه الصحراء لفرنسا، وغير هذا مما تقدم، وفساد قلوب الرعية أدوؤ داء يعالجه حكماء السياسة، فضلاً عما لا معرفة له بها. ثم إن مولاي عبدالعزيز كان لين الجانب، شفيقاً، لا يرى في سفك الدماء مصلحة، ولينه الكلي أظهره في مظهر الضعف، فتجرات عليه الرعية التي لها قلوب حديدية كما أسلفنا، بل تجراً عليه قواده ومستخدموه... وراجت الدسائس على ألسنة طغام العامة بشتم السلطان ووزرائه...»^(٢).

أما الأوضاع الاقتصادية في عهد السلطان عبدالعزيز فقد كانت في وضع سيئ، حيث إن تنامي الاضطراب الداخلي عمق الأزمة المالية التي تمر بها الدولة، ولذا حاول السلطان الخروج من هذا الوضع بعملية سك النقود الجديدة، ولم تسهم هذه العملية في إخراج الدولة من أزمتها الاقتصادية، وفي الوقت نفسه وبهدف زيادة الدخل أقدم السلطان على إصلاحات ضريبية قوية بشكل مضر، حيث ألغى النظام الضريبي السابق والذي يعتمد على الزكاة والعشور والتكاليف المخزنية، وأطلق نظاماً

(١) المشرفي، المصدر السابق، ٢ / ٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) الخلوفاي، المرجع السابق، ص ٢٢.

جديداً سماه الترتيب، وتتمحور فكرته في فرض ضرائب جبائية تراعي العدل والمساواة بين الناس، وذلك بعد إحصاء كل أنواع المواشي والحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى، ويتم تحديد ما يجب على كل نوع من هذه الأنواع. كما أن هذا الضريبة ستفرض على كل القبائل بدون استثناء على الفقراء والأغنياء والأشراف، الأقوياء والضعفاء، العامل والخليفة، والشيخ وكل شخص بدون استثناء. فقد جاء في الظهير السلطاني أصناف الناس الذين يشملهم الترتيب العزيزي، حيث نص على أن: «يستوي في الضرائب التي ستقدر، والعطاء على الوجه الذي يسيطر، جميع الناس: المشروف والشريف، والقوي والضعيف، والمتولي كيفما كان، والكبير والغني والفقير، ومن بالمغرب من تجار الأجانب، ومن في حمايتهم من مسلمين ويهود... [على] الإبل والبقر والغنم بنوعيتها، والخيول والبغال والحمير: المركوب منها والمستخدم، وأشجار الزيتون واللوز، وأشجار الجنات والبحائر، وسواني الحناء، وجميع ما ينزرع بالبلادات الحراثية»^(١).

ويعد الترتيب الذي جاء جديداً في تصوره وفي طريقة تطبيقه عاملاً من عوامل تأزيم الوضع في الداخل، حيث أثقل كاهل السكان، وألغى كل الامتيازات التي كان يتمتع بها بعض الأعيان، وأسندت جباية هذه الضريبة إلى أمناء خاصين، لم يراعوا الامتيازات السابقة التي كان يتمتع بها بعض أعيان الدولة والموظفين، وهو ما أثار غضبهم. إضافة إلى ذلك

(١) المنوني، محمد: مظاهر يقظة المغرب الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ٢ / ٨٨. وللاطلاع حول الترتيب انظر الكتاب نفسه، ٢ / ٦٤ - ٦٦، ٨٥ - ٨٧. الخديمي، علال: «الترتيب العزيزي»، ضمن موسوعة معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ٧ / ٢٣١٦ - ٢٣١٩.

ارتكب مستشاروا السلطان خطأ فادحاً حينما ألغوا الضرائب القديمة قبل أن يتم تطبيق النظام الجديد، وهذا أفقد المخزن الجزء الهام من موارده.

وبما أن الترتيب يشمل الأوربيين المقيمين بالمغرب ونظراً لما نصت عليه معاهدة مدريد لعام ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م، فإن أداء هذه الضريبة لا يمكن أن يتم بدون الرجوع إلى رأي القوى الأوربية في ذلك^(١). وقد تأخر رد هذه القوى الأوربية، وخلال سنتين تأخر تحصيل هذه الضريبة في الوقت الذي زادت فيه مصاريف السلطان، واشتدت فيه الاضطرابات، وزادت حاجة المخزن إلى إيرادات جديدة. وللخروج من هذه الأزمة المالية، وتغطية العجز الذي عرفته الخزينة لم يكن أمام السلطان إلا اللجوء إلى الاقتراض من القوى الأوربية، وبقبوله الدخول في هذه القروض ستبدأ مرحلة جديدة تهيئ للاختراق الأوربي للمغرب^(٢). كما حدث بالنسبة لتونس ومصر، وهو ما سيؤدي في المستقبل إلى فقدان المغرب لاستقلاله.

ففي عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م اقترض السلطان من فرنسا مبلغ سبعة ملايين وخمسمئة ألف فرنك عن طريق شركة جوتش المالية الفرنسية، وفي عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م تم عقد قرضين بنفس القيمة مع بنوك إنجليزية وإسبانية، ومنذ البداية أنفقت هذه الأموال لتغطية ديون السلطان عبدالعزيز

(١) نصت على ذلك المادة الثالثة عشر من المعاهدة المذكورة. الشادلي، عبداللطيف: نصوص اتفاقيات دولية مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ٣ / ٢٩. وانظر أيضًا: المشرفي، المصدر السابق، ٢ / ٢٦٤.

(٢) حول سياسة القروض ودورها في استعمار المغرب انظر: طالبي، أحمد: «سياسة القروض في نظام الغزو الاستعماري الأوربي للمغرب على عهد السلطان المولى عبدالعزيز»، أعمال الدورة الثامنة لجامعة مولاي علي الشريف، ص ١٤٤ - ١٥٣.

تجاه التجار الأجانب، وفي الحملة العسكرية التي وجهت لإخماد ثورة بوحمارة^(١)، ونتيجة لذلك أصبحت الخزينة من جديد فارغة، وفي الوقت نفسه كان من الضروري أداء فوائد الديون ودفع المستحقات السابقة، ولهذا كان المخزن منقسماً تجاه هذه المعضلة إما لإلغاء المصاريف أو الدخول في قروض جديدة، وبطبيعة الحال تم الأخذ بالرأي الأخير وهو اللجوء إلى عقد قروض جديدة.

استطاعت البنوك الفرنسية وفي مقدمتها بنك باريس والأراضي المنخفضة وبسند من وزارة الخارجية الفرنسية أن تبعد البنوك الأوروبية المنافسة وتفرض شروطها. ففي مقابل قرض يبلغ ٦٢ مليون و ٥٠٠ ألف فرنك بفائدة ٥٪^(٢)، يدفع منها للسلطان ٤٠ مليون فرنك، والباقي لتسديد القروض السابقة^(٣)، إضافة إلى ذلك يصبح الإشراف على جباية الرسوم الجمركية في الموانئ المفتوحة أو التي ستفتح للتجارة الأوروبية من قبل مراقبين وموظفين فرنسيين يحق لهم أخذ ٦٠٪ من مدخول الرسوم الجمركية اليومية فيها^(٤).

(١) بوحمارة لقب للجيلاني بن عبدالسلام اليوسفي الزرهوني، صاحب أشهر ثورة قامت بالمغرب في بداية القرن العشرين. وحول ترجمته انظر: بوعشرين، المصدر السابق، ص ٧١ - ٨٩. ابن منصور، المرجع السابق، ١ / ٣٠٣ - ٣٩٧.

(٢) نصت على ذلك المادة الأولى. ابن زيدان، عبدالرحمن: العلاقات السياسية للدولة العلوية، تحقيق عبداللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٢٨١. الشاذلي، المرجع السابق، ٣ / ١١٤.

(٣) نصت على ذلك المادة الخامسة والعشرين. ابن زيدان، العلاقات السياسية، ص ٢٩٢. الشاذلي، المرجع السابق، ٣ / ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) نصت على ذلك المادة السابعة عشر. ابن زيدان، العلاقات السياسية، ص ٢٨٧. الشاذلي، المرجع السابق، ٣ / ١٢٢ - ١٢٣.

كما التزم السلطان ألا يتقدم بطلب لقروض جديدة إلا من مجموعة البنوك الفرنسية^(١)، ولذلك رأى السلطان الطلب من مجموعة تكتل البنوك الفرنسية المساعدة في إنشاء بنك للدولة المغربية^(٢)، وبهذه الطريقة فتح السلطان عبدالعزيز المجال للفرنسيين للمساس بسيادة الدولة المغربية، كما أسهمت هذه الاتفاقية في خسارة المخزن لإيرادات هامة للخزينة. كل ذلك تم دون أن ينجح السلطان عبدالعزيز في حل الأزمة المالية التي باتت تخيم على البلاد وقد خلف لمن جاء بعده أثراً ثقيلاً.

الأوضاع العامة في مشيخات الساحل:

شكل غياب الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م الفرصة السانحة لبريطانيا لتضرب وبقوة نفوذ القواسم في الخليج العربي، وكانت بريطانيا قد قررت منذ عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م القيام بحملة بحرية كبيرة ضد رأس الخيمة، لأن القواسم تجرأوا على سيادتها البحرية على البحار، لكنها فضلت الانتظار حتى تظهر نتائج حملة إبراهيم باشا على الدرعية، وبعدها قررت إرسال حملة ضخمة ضد رأس الخيمة في صفر ١٢٣٥هـ / نوفمبر ١٨١٩م، استطاعت بها أن تدمر قلاع القواسم في رأس الخيمة وفي أم القيوين وعجمان والشارقة، واستطاعت بريطانيا بعدها أن تفرض سيطرتها على الخليج وتوقع مع كل شيوخ الساحل على اتفاقية السلام العام في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م، تضمنت امتناع شيوخ الساحل عن القيام

(١) نصت على ذلك المادة الثالثة والثلاثين. ابن زيدان، العلائق السياسية، ص ٢٩٤.

الشاذلي، المرجع السابق، ٣ / ١٣٢.

(٢) نصت المادة الواحدة والثلاثين من مواد مؤتمر الجزيرة الخضراء على إنشاء هذا البنك، وفصلت المواد (٣٢ - ٥٨) أعماله ومهامه، والدول المساهمة فيه. الشاذلي، المرجع السابق، ٣ / ١٧١ - ١٨٣.

بأي أعمال اعتداء في البحر، مع ضرورة رفع رعايا شيوخ الساحل لعلم السلام. واستتبع ذلك قيام حكومة الهند البريطانية بتعيين وكيل سياسي محلي من أبناء الخليج يمثل حكومة بومباي في الشارقة عام ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م. ومهمة هذا الوكيل كتابة التقارير عن أحوال الساحل وحكامه، ورفعها إلى المقيم البريطاني في بوشهر. كما فرضت الاتفاقية نظام مراقبة ودوريات بحرية للساحل تقوم به سفن الأسطول البريطاني من قاعدة باسيدو في الخليج العربي.

تلا ذلك قيام حكومة الهند البريطانية بعقد سلسلة من الاتفاقيات مع حكام الساحل رسخت بها نفوذها في المنطقة. مثل: اتفاقية تفتيش السفن التي تنقل الرقيق في عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م، واتفاقية مصادرة السفن التي تنقل الرقيق في عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، واتفاقية الهدنة البحرية الثانية في عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م، واتفاقية منع تجارة الرقيق في عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، واتفاقية السلام البحري الدائم في عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م، واتفاقية إلغاء تجارة الرقيق في عام ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م، واتفاقية المحافظة على خطوط وأعمدة التلغراف في عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م، واتفاقية الحماية في عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م، واتفاقية نزع السلاح في عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م. ومن أهم هذه الاتفاقيات اتفاقية السلام البحري الدائم في عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م. ففي هذه الاتفاقية منعت حكومة الهند اقتتال مشيخات الساحل في البحر بصورة دائمة، لضمان أمن وسلامة تجارتها وسفنها في مياه الخليج العربي.

وتعزيزًا لوجودها في الخليج قام اللورد كيرزون نائب الملك بالهند بزيارة لسلطنة مسقط ومشيخات الساحل في عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م قابل

فيها سلطان مسقط وشيوخ الساحل وعقد مباحثات معهم، وعزز بها سلطة بريطانيا في الخليج^(١).

الدراسة التحليلية للوثائق:

تدور فكرة هذه الرسائل على طلب المساعدة والمعونة من أعلى سلطة في البلاد الإسلامية المتمثلة في شخص السلطان عبدالحميد الثاني، ويختلف مفهوم المساعدة من شخص لآخر، فقد تفتق ذهن الأول بإرسال قصيدة تهنئة بعد انتصار السلطنة العثمانية على مملكة اليونان في الحرب العثمانية اليونانية لعام ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م^(٢)، رغم مضي أكثر من ٩ شهور على انقضاء هذه الحرب^(٣)، أما الرسالة الأخرى فتدور حول طلب نقيب أشراف مدينة سلا بالمغرب مساعدة السلطان العثماني المادية والسند المعنوي لإثبات الحقوق التي باتت في اعتقاد الشريف أنها في مهب الرياح، أما الثالثة فهي من الخليج العربي ومرسلها هو مبارك العقيلي الذي أثار حميته ورقة مطبوعة موزعة في سواحل الخليج العربي فيها استنقاص من السلطان عبدالحميد الثاني الذي يعد أكبر سلطة إسلامية في ذلك الوقت، وجعلته يدبج خطبة في تسفيهه كاتب هذه الورقة ويدعو فيها

(١) لتفاصيل أوفى انظر: إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني: علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٢) للاطلاع على أخبار هذه الحرب انظر: العظم، حقي: تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، مطبعة الترقى، القاهرة، ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م. شاكر، علي رضا: القول الشديد في حرب الدولة العلية مع اليونان، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ١٣٢١هـ.

(٣) انتهت هذه الحرب ١٧ ذي الحجة ١٣١٤هـ/ ١٨ مايو ١٨٩٧م.

المسلمين إلى التكتاف والترابط والاجتماع على سلطة واحدة بقيادة السلطان عبدالحميد الثاني.

أما كتاب هذه الوثائق فهم محمد التادلي ومحمد بن عمر ومبارك العقيلي، ولا تتوافر أي معلومات لدي عن كاتب الوثيقة الأولى سوى ما ذكره عن نفسه أن اسمه محمد بن محمد التادلي وقد وصف نفسه بأنه شيخ الإسلام في المغرب، وبمراجعة كتب التراجم المغربية لم نجد أي ذكر له فيها، وهذا يجعلني أشكك في منصبه ومدى علميته، إذ لا وجود لمثل هذا المنصب في المغرب في تلك الفترة، ثم إنه قد عرف بنفسه بأنه مؤدب بقرية الرباط، الأمر الذي يجعل عدم الترجمة له في كتب التراجم مقبولا لأنه معلم للصبيان؛ وعادة ما يكون معلموا الصبيان من المغمورين، ولكن الملفت للنظر في اسم كاتب هذه الوثيقة أنه ذكر أنه على المذهب الحنفي، وهذا الأمر غريب جدًا، إذ إن المغرب الأقصى معروف بوحدته المذهبية، وأن جميع سكانه هم على المذهب المالكي فقط، فهل ادعاء التادلي التمدد على المذهب الحنفي كان لأجل تدعيم طلب المعونة المادية من السلطان عبدالحميد الثاني.

وبالنسبة لكاتب الوثيقة الثانية الشريف محمد بن عمر فلا تتوافر لدي أي معلومات عنه سوى أنه محمد بن عمر العلوي، وأنه من أعيان مدينة سلا الذين شاركوا في مبايعة السلطان الحسن الأول بالسلطنة بعد وفاة والده السلطان محمد بن عبدالرحمن في ٢٥ رجب ١٢٩٠هـ^(١)، وأنه تولى بعدها نقابة الأشراف في مدينة سلا^(٢).

(١) ابن منصور، عبدالوهاب: الوثائق، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ٣ / ١٢٣.

(٢) حول نظام نقابة الأشراف بالمغرب انظر: ابن زيدان، العز والصولة، ٧٢ / ٢ - ١١٣.

أما العقيلي كاتب الوثيقة الثالثة فهو مبارك بن حمد آل مانع العقيلي، ولد عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٥م بالأحساء، وبها نشأ، ودرس العلم على بعض علمائها، ثم رحل إلى العراق واستقر فيه لفترة عند الشيخ صالح المنصور السعدون أحد شيوخ قبيلة المنتفق، ومن العراق اتجه إلى دبي واتصل بحاكمها الشيخ مكتوم بن حشر بن مكتوم، ونشأت بينه وبين محبي الأدب والشعر في هذه المنطقة صلات قوية. ثم أخذ الشاعر يتردد بين دبي ومسقط وهنالك اتصل بالسلطان فيصل بن تركي آل بوسعيد، وامتدحه بعدة قصائد نالت إعجاب السلطان، فعرض عليه الإقامة في مسقط فمكث بها فترة من الزمن ثم عاد بعدها إلى دبي واستقر بها إلى أن وافته المنية عام ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م، له ديوان مطبوع بعنوان: «كفاية الغريم عن المداحة والنديم»^(١).

وكتاب هذه الوثائق الثلاث يتفقون في مواضع، ويختلفون في مواضع أخرى، وسندرس أولاً مواضع الاتفاق ثم ندرس مواضع اختلاف كل وثيقة لوحدها.

أ - النواحي التي تتفق فيها الوثائق:

تتفق هذه الوثائق في قضية الاعتراف بمكانة السلطان عبدالحميد الثاني، وبكونه رمزاً يمثل الأمة الإسلامية، إليه تشرئب أعناقها، وتتطلع إليه آمالها، وهو الملجأ والملاذ لها في خضم الصراعات الدولية، ويمكن إجمال هذا في النواحي الآتية:

(١) العقيلي، مبارك بن حمد: كفاية الغريم عن المدامة والنديم، تحقيق بلال البدور، دار الواحة للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م. الرويس، قاسم بن خلف: «وثيقة عثمانية تكشف عن هوية الشاعر الأحسائي مبارك العقيلي»، جريدة الرياض، ع ١٣٧١٣، (الأحد ٥ شوال ١٤٢٩هـ / أكتوبر ٢٠٠٨م).

١/ الاعتراف بخلافة السلطان عبدالحميد الثاني:

أسهمت دعوة السلطان عبدالحميد الثاني إلى الجامعة الإسلامية في محاولة ربط الشعوب الإسلامية بشخص السلطان العثماني بصفته أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين، وتظهر هذه الرسائل - محل البحث - صورة من هذه المحاولة.

فنظراً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي سبق التعرض لها فقد قام هؤلاء الأشخاص بالكتابة إلى السلطان العثماني طالبين منه المساعدة والمعونة والنصرة.

حيث أشار الخطاب الأول المرسل من قبل محمد بن محمد التادلي بالاعتراف للسلطان العثماني بأنه ظل الله الوريث^(١)، ومن المعروف أن هذا اللقب من ألقاب الخلافة، وهو مقتبس من قول الرسول ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم»^(٢)، أما في الخطاب الثاني الذي أرسله الشريف محمد بن عمر فقد أشار فيه صراحة إلى ولاية السلطان عبدالحميد الثاني بإمرة المؤمنين، وهنا نتساءل هل فعلاً استطاع السلطان عبدالحميد الثاني أن يوصل دعوته إلى المغرب

(١) ظل الله، لقب من ألقاب السلاطين العثمانيين، والمراد به أن الخلق يستظلون بالسلطان من حر الجور، كما يستظل المستظل بظل الشجرة ونحوها من حر الشمس. الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٣٨٤ - ٣٨٦. الخطيب، مصطفى عبدالكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣١٣.

(٢) رواه أبو هريرة، وللحديث صيغ أخرى، ويرى العلامة الألباني ضعف الحديث بجميع صيغه، انظر: الألباني، محمد بن ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٨ - ١٤١٢هـ/ ١٩٨٨ - ١٩٩٢م، ١/ ٦٨٧، ٤/ ١٥٩ - ١٦٢.

التي لم تخضع في يوم من الأيام لسلطة أي من سلاطين آل عثمان، ويجعل من عامة الناس تعترف وتدين له فقط بالسلطة الروحية دون غيره، أرى أنه من الصعوبة الإجابة على هذا السؤال إلا بعد دراسة شاملة على ما ثبت والاطلاع على الوثائق وما كتب في الصحف في تلك الفترة، لكن أود الإشارة إلى أن مشروع دستور عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م أغفل الإشارة بشكل تام إلى أن سلطان المغرب هو أمير المؤمنين^(١)، وهو في ظني مكسب من مكاسب دعوة الجامعة الإسلامية في توحيد الخلافة في شخص واحد.

أما العقيلي فقد وصف السلطان عبدالحميد الثاني بأنه: «أمير المؤمنين وأشرف أهل التقى واليقين، خليفة الله على عباده وأمينه في بلاده، سلطاننا المؤيد المظفر المنصور، الموفق الرشيد الموفي للذمم، الرؤوف بالمسلمين والإسلام، السلطان الغازي عبدالحميد خان ابن السلطان الغازي عبدالمجيد خان، لا زال التوفيق قرينه في كل شأن والنصر قائد جيوشه في كل آن ومكان»، ولا شك أن العقيلي الذي ناله من أذى الأتراك في الأحساء الشيء الكثير، يرى أن ولاية الأتراك بالرغم من ابتعادهم الكبير عن الإسلام أرحم بكثير من ولاية البريطانيين في الخليج، ولذا نجده يسارع إلى الدفاع عن السلطان عبدالحميد الثاني بصفته خليفة للمسلمين تجاه المخططات البريطانية الرامية إلى القضاء على الدولة العثمانية، وقد أشار العقيلي في رسالته إلى دور مخططات اللورد كيرزون نائب الملك في الهند ومحاولاته القضاء على الدولة العثمانية،

(١) غلاب، عبدالكريم: التطور الدستوري والنيابي في المغرب من سنة ١٩٠٨م إلى سنة ١٩٧٧م، د. ن، د. م، ١٩٧٨م، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

موحياً من طرف خفي إلى أثر زيارة اللورد كيرزون إلى الخليج ودورها في تعزيز النفوذ البريطاني في المناطق العربية^(١).

٢ / الإشادة بكونه سلطاناً للجهاد:

تشير الرسالتان المغربيتان إلى الحالة العامة التي صار إليها المغرب الأقصى عندما عطل فيه الجهاد، والذي توقف عملياً بعد وفاة السلطان الحسن الأول، حيث أسهم في ذلك صغر سن خليفته السلطان عبدالعزيز، واحتلال فرنسا لبعض المدن المغربية المتاخمة للحدود الجزائرية المغربية، إضافة إلى سلوك السلطان عبدالعزيز العام الذي أغضب عليه الشعب.

ولهذا نجد أن صاحبي الرسالتين يشيدان بالسلطان العثماني بصفته: «ناصر الملة والدين، وحامل راية المسلمين، قاهر المعادين ومبيد الكافرين، الغازي في سبيل رب العالمين»، وأن جهاده كان «لتكون كلمة الله هي العليا»، حيث أن انتصار السلطنة العثمانية على مملكة اليونان أشاع الفرح والسرور في قلوب المسلمين، ولذا فإن أهل المغرب الذي رأوا في تعطيل هذه الفرضية لديهم، وإقامتها في الدولة الإسلامية الكبرى هي مصدر فخر وسرور وعزاً لهم.

لقد تطلع أهل المغرب إلى من يساعدهم في رد العدوان الذي جرى عليهم، وخصوصاً بعد أحداث توات وما جرى فيها من التهاون في نظر

(١) قام اللورد كيرزون بزيارة لمسقط وقابل فيها شيوخ الساحل وعقد مباحثات معهم في ٣٠ رجب ١٣٢١هـ / ٢١ أكتوبر ١٩٠٣م. للتفصيل انظر: الأرشيف العثماني تصنيف Y.A.Hus 486/69، يتضمن تقريراً عن زيارة اللورد كيرزون إلى الخليج العربي. وتصنيف Y.A.Hus 459/138، يتضمن خطاباً من الصدر الأعظم إلى السلطان في ٢٩ رجب ١٣٢١هـ.

العامّة وتقاعس السلطات في مواجهة الاستعمار الفرنسي، واتهامهم للسلطان عبدالعزيز ببيعه للصحراء لصالح الفرنسيين. ولذا فإن الحركة المسمّاة بـ «الحفيظية» - التي أصبحت حركة واسعة في عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م والتي كانت تهدف إلى استبدال السلطان عبدالعزيز بأخيه الأمير عبدالحفيظ (١٣٢٥-١٣٣١هـ/ ١٩٠٨-١٩١٣م)^(١) - كانت معبرة عن حركات المقاومة ضد التغلغل الاستعماري في «بلاد المخزن»، فالجماهير الشعبية من مراكش إلى فاس، مروّرا بالبوادي، رأت في هذه الحركة وسيلة لمقاومة التغلغل الاستعماري الذي أصبح خطرا دائما بعد سقوط الدار البيضاء في عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م بيد الفرنسيين، ومع قضم التراب الوطني في الشرق من طرف الجيش الفرنسي، وتهاون وانحلال المخزن أيام عبدالعزيز، فقد عد السلطان عبدالحفيظ سلطان الجهاد، الذي عليه أن يقود المقاومة ويحل محل أخيه السلطان عبدالعزيز، والذي عد ممثلاً لقوى الاستسلام، وفي هذا الصدد، فإن بيعة علماء فاس للسلطان عبدالحفيظ في ذي الحجة ١٣٢٥هـ/ يناير ١٩٠٨م مجسدة لذلك^(٢).

أما في سواحل الخليج العربي فإن العقيلي يرى مدى الهيمنة البريطانية

(١) قام السلطان عبدالحفيظ في عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م بزيارة للحجاز وأدى مناسك الحج، وقد أوقف عدة منازل في شعب عامر، كما رصدت الوثائق العثمانية زيارته تلك. الأرشيف العثماني تصنيف DH.KMS ٢٧/٥، يتضمن وثائق عدة حول زيارة السلطان عبدالحفيظ للحجاز وأدائه لمناسك الحج. آل الشيخ، محمد بن إبراهيم: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي المملكة ورئيس القضاة والشؤون الإسلامية، جمع محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ١٣٩٩هـ، ٩/ ٤٢ - ٤٧. ولأهمية رحلة السلطان عبدالحفيظ إلى مكة المكرمة، وأوقفه فيها فإنها ستكون محل دراسة أخرى بإذن الله تعالى.

(٢) انظر نص بيعة فاس للسلطان عبدالحفيظ في: ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ١/ ٤٤٩ - ٤٥٣. ابن زيدان، العز والصولة، ١/ ٣٧٠ - ٣٧٣.

المستمية فيه، والتي كبلت شيوخ مشيخات الخليج باتفاقياتها المانعة، وسيطرت بذلك على مداخل الخليج وجعلته منطقة محمية تابعة لها، ولذا فإن العقيلي يتطلع إلى السلطان عبدالحميد الثاني بصفته قد «تأمر علينا من المسلمين مطلقاً»، ولذلك فإنه يرى أن الجهاد مرهون بموافقة السلطان عبدالحميد، حيث يذكر العقيلي أن أهالي المنطقة: «يحتّون إلى الجهاد الحقيقي حين الغزاة إلى خشفها، والحمامة إلى عشها، وما المانع لهم من ذلك إلا الوسائط التي بين سلطانهم الأعظم ورئيس دينهم الأقوم وبين الدول الأجنبية من المعاهدة الودية التي كانت لنا مسلمي العرب خصوصاً وكافة إخواننا المسلمين عموماً، الحمى التيفودية؛ بسبب وضع سلاح الجهاد الذي ننّ لأجله أنين طريح الوساد؛ لأن ضوابط ديننا الحق تقضي علينا بالسمع والطاعة لمن تأمر علينا من المسلمين مطلقاً».

ب / النواحي الخاصة بكل رسالة:

١/ الرسالة الأولى:

يشير صاحب الرسالة الأولى إلى أن هدفه هو تهنئة السلطان عبدالحميد الثاني بمناسبة انتصار جيوش الدولة العثمانية على دولة اليونان، ومن الملحوظ أن إرساله للقسيصة جاء بعد مضي أكثر من ٩ أشهر على توقف هذه الحرب، وبعد شهرين من عقد معاهدة الصلح النهائية، ومن الواضح أن صاحبها أراد بهذه القسيصة أن تكون وسيلة إلى غاية هي طلب العون والمساعدة من السلطان. وفي هذه الرسالة والقسيصة المرسله معها نجد ما يأتي:

أ/ طلب العون والمساعدة:

وهذا واضحاً جداً في رسالة التادلي إلى السلطان، إذ يشير إلى أن له

أبناء بلغوا مبلغ الرجولة وهم من طلبية العلم الشرعي، ويطلب عون السلطان ومساعدته في شراء مسكن له ولأبنائه إضافة إلى مساعدة مادية جارية، وقد أتبع هذا بتأكيد طلب مساعدة الصدر الأعظم لإنجاح مساعيه لدى السلطان العثماني مستدلاً بحديث عن الرسول ﷺ.

ب/ قضية ولاية العهد:

مما يلحظ في قصيدة التادلي الإشارة بالدعاء لبقاء السلطنة العثمانية في السلطان عبدالحميد الثاني ثم في أبنائه، والسؤال هل بلغت فكرة تغيير نظام الوراثة في الدولة العثمانية إلى المغرب؟.

فمن المعروف أن السلطان عبدالعزيز (١٢٧٧-١٢٩٣هـ/ ١٨٦١-١٨٧٦م) عم السلطان عبدالحميد الثاني سعى إلى تغيير نظام الوراثة بحيث يخلفه في الحكم من بعده ابنه الأمير يوسف عز الدين (١٢٧٣-١٣٣٤هـ/ ١٨٥٧-١٩١٦م)، لكن مسعاه لم ينجح، أما السلطان عبدالحميد الثاني فإنه في بداية عهده أبقى الأمور كما كانت عليه، إذ إن المادة الثالثة في القانون الأساسي الذي أصدره في نهاية عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م أشارت إلى بقاء السلطنة في آل عثمان، وأن الولاية فيهم تكون لأكبر أبناء هذه الأسرة^(١).

لكن السلطان عبدالحميد الثاني سعى إلى تغيير هذا النظام، إذ يشير في مذكراته السياسية إلى محاولاته تغيير نظام الوراثة في الدولة العثمانية،

(١) نص المادة الثالثة هو: «أن السلطنة السنية العثمانية الحائزة الخلافة الكبرى الإسلامية تكون لأكبر أولاد سلالة آل عثمان، بحسب الأصول القديمة». الشدياق، سليم أحمد فارس: كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب، إستانبول، ١٢٩٦هـ، ٥/٦.

ليحصر الحكم في ذريته^(١)، بحيث ينتقل الحكم من السلطان إلى أكبر أبنائه ثم إلى أكبر أبناء هذا الابن الأكبر وهكذا طبقة بعد طبقة، ولذا حاول السلطان عبدالحميد مرارًا تغيير ولاية العهد من أخيه الأمير رشاد أفندي^(٢) إلى ابنه الأكبر الأمير محمد سليم أفندي (١٢٨٨-١٣٥٦هـ/ ١٨٧٢-١٩٣٧م)، ولم يتمكن من تنفيذ ذلك لعقبات عدة منعت حصول ذلك لما فيه من الخروج على تقاليد الدولة العثمانية^(٣).

ج/ القصيدة:

تعد هذه القصيدة - فيما أعلم - القصيدة الوحيدة التي هنيئ فيها السلطان عبدالحميد الثاني بمناسبة انتصار الدولة العثمانية على اليونان من قبل شخص مغربي. إذ إن الشعراء العرب قد أشادوا بانتصار الدولة، ودبجوا القصائد في تهنئة السلطان والإشادة بالنصر العظيم للدولة العثمانية، فنجد أن الشاعر أحمد شوقي قال في قصيدة مطلعها^(٤):

(١) السلطان عبدالحميد الثاني: مذكراتي السياسية، ترجمة كمال خوجة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٦٠ - ٦١.

(٢) الأمير رشاد أفندي هو السلطان محمد رشاد الخامس، الذي تولى الحكم بعد خلع أخيه السلطان عبدالحميد الثاني في عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، واستمر في الحكم إلى عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م.

(٣) ناقشت بالتفصيل قضية وراثة العرش العثماني وإشكاليته في بحث قيد النشر بعنوان: قانون آل عثمان، تطرقت فيه إلى ترجمة قانون الأسرة الحاكمة العثمانية، مع دراسة لجميع قوانين الأسر الملكية العربية وأنظمتها والتي استفادت من هذا القانون، ودراسة كيفية ولاية العهد، وانتقال السلطة من السلطان إلى ولي عهده في جميع الحالات والظروف.

(٤) شوقي، أحمد: ديوان شوقي، دار صادر، بيروت، ط. ٣، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ١/ ٣٣.

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيا ن تضرب
وما السيف إلا آية الملك في الوري ولا الأمر إلا للذي يتغلب
وقصيدته الأخرى التي مطلعها^(١):

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين
لقينا في عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا
أما الشاعر أحمد الكاشف فله قصيدة مطلعها^(٢):

يا عصبة شادوا من الشيطان بر قا غرهم بجهامه الغرار
لا تغضبوا هذا الإمام عليكم وحذار من سوء المصر حذار
كما أن لأحمد محرم قصيدة مطلعها^(٣):

لعمر أبي ما آل عثمان خضع ولكنهم في الحادثات ضراغم
مليكمهم عبدالحميد وإنه لخير مليك في الملمات حازم
ومن المدينة المنورة نجد الشاعر عبدالجليل برادة المدني الذي كان
في أثناء هذه الحرب في مدينة إسطنبول فينشئ قصيدة مطلعها^(٤):

كذا فليكن قهر الأعادي وهكذا تخاض المنايا والحديد لها جسر
حديث عن اليونان يضحك باكياً ويطرب محزوناً ويلهو به غر
وهذه الأمثلة تمثل بعض ما قيل في المشرق العربي، أما من المغرب
العربي فلا نجد سوى قصيدة واحدة - حسب ما اطلعت عليه- هي للشاعر

(١) المصدر نفسه، ١ / ٢٨٠.

(٢) الكاشف، أحمد: ديوان الكاشف، مطبعة الترقى، القاهرة، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، ١ / ٤١.

(٣) محرم، أحمد: ديوان أحمد محرم، مطبعة الجريدة، دمنهور، ١٩٠٨م، ١ / ٢٠.

(٤) البيطار، عبدالرزاق: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجة
البيطار، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، ٢ / ٧٨٢.

الليبي مصطفى بن زكري الطرابلسي الذي ألف ملحمة شعرية تزيد على مئة بيت صور فيها المعارك الحربية التي دارت بين العثمانيين واليونانيين، فقال في قصيدة مطلعها^(١):

يا سعد سر مترنماً ببشائر النصر المبين
ودع المطية طاوياً بحر السفين على السفين
لكن الملاحظ أن هذه قصيدة التادلي هي القصيدة الأولى التي جاءت من المغرب الأقصى، وتشكل هذه القصيدة إضافة أدبية إلى مدونات الشعر العربي حول الحرب العثمانية اليونانية.

وبالرغم من طرافة هذه القصيدة وتميزها بتفرداها - لأنها من منطقة المغرب الأقصى - إلا أنه حين قراءة القصيدة نجد مضامينها تقليدية لا تتسم بالجدة أو الابتكار، بل معظم معانيها أشتات مجمعة من معجم شعري، ولم يوفق الشاعر في التسلسل المنطقي؛ ما جعل الأبيات تتسم بالتكلف، بل زد على ذلك أننا لو قدمنا بيتا على آخر في معظم أجزاء القصيدة لم يؤثر ذلك على بنيتها.

أما ما يخص الأفكار والصور فلم تحفل بمسايرتها للحدث الشعري الذي من أجله أنشئت القصيدة، كما أن الشاعر لم يوفق في عرض المعاني؛ فمثلا قوله: «وضوء النصر ساعده التهاني» يلحظ التكلف في عرض المعنى، بل كأن الشاعر استوفاه من أجل الوزن فقط. ومثلا قوله: وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربت خمور فهنا حصر السعادة في شر الخمر ونشوته، وهذا المعنى غير صحيح،

(١) الطرابلسي، مصطفى بن زكري: ديوان مصطفى بن زكري الطرابلسي، تحقيق علي مصطفى المصراتي، دار الفكر، طرابلس، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م، ص ١٨٣.

كما أن الشاعر لم يوفق في جلب هذه الصورة؛ لأن نشوة الخمر هي مدة محدودة، وهذا يعنى أنه قصر فرحة المسلمين، وكان الأحرى أن يوظف صورة توحى بالفرحة الدائمة.

وحين يلقي الضوء على الآيات الآتية:

وكم أسرى وكم قتلى بأرض وكم جرحى دمائمهم تفور
تمر بها الطيور فتنتقيها وبات الذيب وهو لها شكور
وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا وقد عظمت به لكم الأجور
ألا يا معشر الكفار هاذا... وليس له قتلور
نجد الفصل بين وصف حال الكفار حين الهزيمة ثم إقحام البشري،
والعودة مرة أخرى إلى مخاطبة الكفار، وهذا يدل على التكلف والتصنع
في عرض الأفكار والمعاني، وعدم توفيق الشاعر في سبك تراكيبه
وانسجامها حتى تكون كالجسد الواحد.

٢/ الرسالة الثانية:

تعبر هذه الرسالة عن طلب الشريف محمد بن عمر العلوي المساعدة
المادية والسند المعنوي لإثبات الحقوق التي باتت في اعتقاده أصبحت في
مهب الريح، حيث راسل السلطان عبدالحميد الثاني، ودبج رسالة تناول
فيها تمجيد السلطان وتعظيمه، وطلب له فيها العز والتمكين، وأشار إليه
بلقب أمرة المؤمنين التي تعد من أهم الألقاب التي يتلقب بها سلطان
المغرب، وأكد العلوي على أن السلطان عبدالحميد الثاني سلطان الجهاد
وإسباغ عليه ألقاب عدة مثل: «قاهر المعادين ومبيد الكافرين الغازي في
سبيل رب العالمين»، ووصف السلطان بأنه سلطان البرين والبحرين،

مشيراً بذلك إلى سعة مملكة السلطان عبدالحميد الذي يحكم على منطقة واسعة مقارنة بالمغرب الأقصى، كما أشار العلوي إلى المكانة الروحية للسلطان من خلال خدمته للحرمين الشريفين، بعدها يعرف العلوي نفسه بأنه من العائلة القريبة من سلطان المغرب، وأنه نقيب للأشراف العلويين في سلا من عهد السلطان الحسن الأول، ويزود السلطان عبدالحميد بشواهد إثبات تثبت صحة ما ذكره ابن عمر عن نفسه. بعدها يشير العلوي إلى قيام السلطان الحسن الأول صرف مرتبات وعوائد سنوية وأعطيات للأشراف، ومنهم ابن عمر، تتمثل في مُد سنوي من القمح، والكسوة لكل فرد من عائلته، وصلة وراتب شهري، وذكر أن هذه الإعانة لا تفي بالاحتياجات، لكثرة عدد أبنائه وكبر حجم أسرته، وإن إعانة السلطان لهم توقفت عام ١٣١٨هـ في عهد السلطان عبدالعزيز، وأن تذبذب صرف الإعانات والرواتب سبب لابن عمر تراكم الديون. وقد تدهورت حالته المادية هو وأسرته إلى درجة لجوئهم إلى التسول. ولذلك فقد سعى إلى البحث عمن يصرف له الإعانات من الوزراء والأعوان، وتمكن من الحصول على إعانة سنتين هما (١٣٢٢ و ١٣٢٤هـ) وأن مصدرها كان من الرسوم الجمركية، ولذا قرر اللجوء في هذه الظروف إلى السلطان عبدالحميد الثاني لأجل مساعدته في قضاء ديونه، كما طلب إصدار مرسوم سلطاني لأجل استمرار التوفير والاحترام له، وتكون سبباً في استمراره في موقعه نقيباً للأشراف في مدينة سلا، محاولاً استجداء السلطان للوقوف إلى جانبه والاستجابة لرغباته.

ولا شك في أن هذه الرسالة تمثل نموذجاً من نماذج طلبات المعونة والمساعدة المادية والسند المعنوي، وفي سبيلها يبذل طالبها الغالي والنفيس لأجل الوصول لمبتغاه، فنجده يسبغ الألقاب يمناً ويسره ويدبج

الكلمات والعبارات الرنانة محاولاً استجداء أصحاب السلطة في تحقيق طلباته، ولذا فإن مثل هذه الرسالة تمثل صورة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة.

٣/ الرسالة الثالثة:

تنطلق فكرة هذه الرسالة من أن الشاعر مبارك العقيلي عرضت عليه ورقة مطبوعة بـ «الأحرف الجديدة غير ممضيات ولا مؤرخة ولا مفتوحة بالبسملة السنية»، وذلك في يوم ١٧ جمادى الثانية ١٣٢٤هـ في مدينة دبي، وذكر العقيلي نص ما جاء في هذه الورقة، التي تضمنت نقداً جارحاً لوضع الدولة العثمانية، ومحاولة الورقة تأليب الرأي العام العربي ضد الدولة العثمانية، وذلك بإثارة النعرة القومية، وإظهار السلطان عبد الحميد الثاني خارجاً عن الدين والملة. حيث وصفت الورقة حكام الدولة العثمانية «الذين ضحوا اليوم يترأسون عليكم ويتسلطون على ممالككم وبلادكم بعد أن افتتحوها بدماء آبائكم وأجدادكم، وهذا كله جار باختباركم وعن إرادتكم واختياركم. كيف لا وقد نصبتم عليكم سلطاناً ليس من دمكم، وخليفة ليس من دينكم، وحاكماً جباناً ليس من ملتكم، وأميراً جاهلاً لشريعتكم، فباع دينكم وخسر دنياكم، ودمّر في عشرين سنة ما شيدتموه في سبعمائة سنة، وحشى سرايته بالأسافل الطغام، الذين اختارهم بين أشر اللثام، وصار يحكمكم هؤلاء المفسدون والظالمون والطغمة الدنيئون، فداسوا أعراضكم وأغراضكم، ونهبوا حقوقكم وأموالكم، وجعلوكم كأنكم لا حياة لكم»، كما ذكرت هذه الورقة أن «سلطانكم عبد الحميد، قد صيركم أحقر ملة بعد أن كان لكم أعظم دولة وأكبر شوكة ومهابة وصوله، وبذر أموال بيت المسلمين ووزعها على الأوباش والأراذل وأحسن بها إلى أعداء الدين والعواويل، ومزق بلادكم

الفسيحة، وشتت ممالككم الواسعة، وأعطائها لأعدائكم، وجعل عبيدكم أولياءكم، فترقوا وتقدموا واغبتطوا وتنعموا».

وقد أثارت هذه الورقة الشاعر العقيلي وجعلته يكتب ردًا عنيفًا على صاحب هذه الورقة، والتي لم يعرف كاتبها، إذ اتهمه العقيلي بأنه «ما أراد بذلك إلا شق عصى المسلمين بينهم، وتفريق كلمتهم، وتشيت شمل ملتهم وتنفيرهم من الالتجاء إلى ظل رئيس دينهم الأعظم»، ولذا فإن خطبة العقيلي كانت للدفاع عن مؤسسة الخلافة، وتشجيع المقاومة ضد الاستعمار، وبين فيها أن الهجوم على دولة الخلافة هو من مخططات البريطانيين، وخصوصًا اللورد كيرزون الذي يري أن «الخلافة إن لم تكن عربية لم تستطع بريطانيا على تنفيذ أوامرها من كلية أو جزئية جميع الممالك الإسلامية، خوفًا من إخواننا مسلمي الديار الهندية»، متهمًا بريطانيا بأنها هي وراء الثورات التي قامت في وجه الدولة العثمانية، وخصوصًا ثورة اليمن والثورات في مقدونيا، داعيًا المسلمين إلى التكاتف والترابط، والاجتماع والوحدة على قيادة واحدة هي قيادة السلطان عبدالحميد الثاني، ونبد البغضاء والشحناء والضغائن.

الخاتمة:

كانت الدولة العثمانية عندما تولى السلطان عبدالحميد الثاني الحكم فيها تمر بأسوأ مراحل تاريخها، ولم تعد تعرف باسم «الرجل المريض» فحسب بل وصلت إلى مرحلة «الرجل المحتضر». ولذا وجه السلطان جهوده إلى توحيد الصف الداخلي للدولة، ومحاربة الفتن والثورات المحلية وقمعها، لمواجهة الأطماع الأوروبية المتزايدة في الدولة العثمانية، وقد كان سلاح السلطان في ذلك الدعوة إلى قيام فكرة الجامعة الإسلامية، لتكون رابطة دينية تجمع المسلمين في شتى العالم بعامة وفي

المشرق الإسلامي بخاصة في جبهة واحدة، وهذه الجبهة تعمل تحت قيادة السلطان.

وقد وصلت أصداء هذه الحركة إلى مناطق لم يشملها النفوذ العثماني، ولم تدخل ضمن نطاق الدولة العثمانية، ومنها بعض سواحل الخليج العربي ومنطقة المغرب الأقصى، وقد بينت الرسائل المرسلة إلى السلطان عبدالحميد الثاني النظرة الإيجابية التي يتطلع إليها سكان هذه المناطق، الذين رأوا فيه سلطان الجهاد، في الوقت الذي كانت مناطقهم تشهد تزايداً في النفوذ الاستعماري، وتهميشاً للقوى المحلية.

كما بينت - على الرغم من تباين الأسباب والأهداف - أن هاجس الوحدة والترابط كان متوافراً في هذه الرسائل، لذا نجد تطلع أصحاب هذه الرسائل إلى وجود سلطة واحدة يسلم لها بالطاعة والولاء، وتكون رمزاً للوحدة، وسبباً للترابط، وهي السد المنيع لمواجهة الأطماع التي تواجه الأمة.

أن موضوع الجامعة الإسلامية من المواضيع التي لم تنل حظها من الدراسة والتحليل من واقع وثائق الأرشيف العثماني - التي تم الكشف عن كثير منها مؤخراً وأصبحت في متناول الباحثين - هي جديرة بدراسة موسعة تجلي أهدافها ومسبباتها، والنتائج التي توصلت إليها، وانتهاء هذه التجربة بنهاية الحرب العالمية الأولى، للوصول إلى أسباب فشل هذه الحركة، وأبرز نقاط ضعفها وقوتها، وأن دراسة تلك الحركة التي تضافرت عوامل عدة في نجاحها وسقوطها لكفيلة بإبراز جوانب مهمة من التاريخ العثماني أغفلتها المصادر العامة نتيجة اهتمامها بالعموميات، ولعل دراسات لاحقة تكشف مزيداً عن تلك الفترة المهمة في التاريخ الإسلامي الحديث، والله ولي التوفيق.

الملاحق

كتبت هذه الوثائق باللغة العربية، فالرسالتين المغربيتين كتبتا بالخط المغربي، الذي يصعب قراءته على المشاركة إلا بعد تمرن، أما الرسالة الخليجية فكتبت بخط الرقعة، أما لغة الوثائق الثلاث فاستخدمت فيها اللهجة العامية المحلية. أما منهج النشر فقد اقتضى نشر نصوص الرسائل المغربية فقط كما وردت دون أي تدخل مني بتصحيح الأخطاء اللغوية لإبقاء النصوص على أصلها^(١)، ولأهمية تقسيم النص إلى جمل واضحة فقد أضفت علامات الترقيم فيها، وعلقت على المواضع التي تحتاج إلى توضيح.

ملحق رقم (١): نص الرسائل المغربية

١ - رسائل الشيخ محمد بن محمد التادلي:

أ- رسالة محمد بن محمد التادلي للصدر الأعظم:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

حضرة ركن الدولة العثمانية، وملمح عيون الأعيان، من أفراد خدمة السادة الخاقانية، الصدر الأعظم^(٢)، والوزير المفخم لحضرة السلطان عبدالحميد الأفخم، عليك أزكى سلام يفوق فوح العنبر ومسك الختام، وبعد فإنه لما

(١) بالنسبة للرسالة الخليجية فقد سبق نشرها، انظر: صابان، سهيل: «الدعوة إلى الوحدة الإسلامية في خطاب مبارك بن حمد العقيلي بالأرشييف العثماني»، مجلة عالم المخطوطات والنوادر، مج ١١، ع ٢ (رجب - ذو الحجة ١٤٢٧هـ / أغسطس - ديسمبر ٢٠٠٦م)، ص ٤٨٢-٤٩٢.

(٢) الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء في الدولة العثمانية. صابان، المرجع السابق، ص ١٤٣-١٤٤.

ملأ الله تعالى الأقطار المشرقية والمغربية بنصركم على الأعداء^(١) سرورًا، ودبجت أدبائها وشعراؤها في تهنئتك بذلك صحائف وسطورًا، تحركت هممتنا أن ننتظم في سلك الفرحين بنصر الله، وما النصر إلا من عند الله، لتكون كلمة الله هي العليا، وهاذه قصيدة التهنئة تصل حضرة مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأكرم^(٢)، والمؤمل من سيادتكم الجليلة ومجادتكم الفخيمة الأصيلة أن تسعى جهدك في تنفيذ طلبتنا ونجاح رغبتنا، ففي الحديث الشريف عن الصادق المصدوق عليه السلام: «أن لله مفاتيح للخير مغاليق للشر فطوبى لمن خلقت الخير وجعلته له مفتاحًا»^(٣)، لا زلتم ظل الله الوريث يأوي إليه الضعيف وينجح فيه مطلب المشروف والشريف، أدام الله علاكم آمين، والسلام في ٢٩ رمضان المعظم عام ١٣١٥هـ.

شيخ الإسلام بالمغرب محمد بن محمد التادلي بقرية
الرباط فيما بين فاس دار الملك مراكش له مولاه.

(١) يشير إلى الحرب العثمانية اليونانية التي جرت أحداثها في عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م.
(٢) الخاقان تعني السلطان الأعظم. بركات، مصطفى: الألقاب والوظائف العثمانية: دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات ١٥١٧-١٩٢٤م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٨، ٣٦. الباشا، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

(٣) صيغة الحديث الواردة أعلاه ناقصة، وصحته ما رواه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه»، ويرى العلامة الألباني صحة الحديث، انظر: الألباني، محمد بن ناصر الدين، صحيح سنن ابن ماجه، مكتبة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية، الرياض، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ١ / ٤٦. الألباني، محمد بن ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ٣ / ٣٢٠.

ب- رسالة محمد بن محمد التادلي للسلطان عبدالحميد الثاني :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

جناب المنصب الشريف، وممد ظل الله الوريث، حضرة سلطان البحرين وخاقان البرين^(١)، الأمير الذي هو لسعادة الدهر عنوان، السلطان عبدالحميد خان، على حضرته المؤيدة بنصر الله أزكى سلام يفوق فوح العنبر ومسك الختام، وبعد فإنه لما ملأ الله تعالى الأقطار المشرقية والمغربية بنصركم على الأعداء سروراً، ودبجت أدبائها وشعراؤها في تهنئتكم بذلك صحائف وسطوراً، تحركت همتنا أن نتظم في سلك الفرحين بنصر الله إذ كان سعيكم في جهادكم لتكون كلمة الله هي العليا، وما النصر إلا من عند الله وهاذه قصيدة التهنئة تصلكم في حفظ الله ورسوله، فالمأمل أن يتلقاها خاطركم النوراني ببشره وقبوله، مكرمين بالإغضاء عما في نور روضها من الفتور والذبول، راية الروي من البحر الوافر السوي، ثم إن التعرض للاستمطار من بحر الملوك معدود من المفاجر، وهو لدى الأدباء من أوضح الطرق وأجل الذخائر، وإن لي أبناء قد بلغوا مبلغ الرجولية، وهم في خدمة العلم الشريف، الذي هو أعظم مزية، غير أنه قد أعجزنا التوصل إلى مسكن يؤويهم، ومؤنة تعفهم وترويههم، فالمؤمل من سعة حضرتك الكريمة أن تجري لنا مما يقوم بما ذكرنا مقسماً وغنيمة، لازلتُم ظل الله الوريث، الذي يأوي إليه الضعيف، وينجح فيه مطلب المشروف والشريف، أدام الله علاكم وضاعف مد

(١) سلطان البحرين وخاقان البرين: لقب من ألقاب السلاطين العثمانيين، ويقصد بالبرين البر الآسيوي والبر الأوروبي، والبحرين البحر المتوسط والبحر الأسود. بركات، المرجع السابق، ص ١٨، ٣٦. الباشا، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

الدوام ما خولكم وأولاكم، آمين والسلام في ٢٩ رمضان المعظم عام ١٣١٥هـ.

شيخ الإسلام بالمغرب محمد بن محمد
التادلي المؤدب بقرية الرباط فيما بين
فاس ودار الملك مراكش لطف الله به.

ج- قصيدة التهئة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله
القصيدة المغربية الحنيفة في التهئة بالنصر للدولة العثمانية على الدولة
المخدولة اليونانية:

ألا أبشر فهاذا الفتح نور	ودم يغشاك ما عشت الشهور
فطير السعد نادي حيث غنى	قد انشرفت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني	ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرا	وطاب العيش واتصل الحبور
حميتم بيضة الإسلام لما	بعين الحق قد حرس الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فأنتم	لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوما	لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا	وفي يوم الوغا الأسد الهصور
وفي اليونانيين لقد تبدى	لقدركم على الشعري ظهور
لقد كان الملوكة فساوموها	وراموهم وبادلهم نفور
فلما جئتها انقادت وقالت	إليك بحق مولانا المصير
فذا عبدالحميد أخو المعالي	قد انتظمت بعزته الأمور
ألا يا أيها الخاقان أبشر	ومثلك من يسير له البشير
إذا ما جاء نصر الله يسعى	وجاء الفتح قد وجب الشكور

وللإسعاد عنوان مبین
وتسخیر الشمندفیر برا
وقام المخلصون إلیک جندا
وإذ ضاق الطریق إلی الأعادی
أخذتم دونها سبلاً فجاجاً
بذالکم استوی بشر التروی
وقد أضحت تسلية فی ارتهان
وكم من دون تیر قرى تاتت
ملکت قيادة عزتها بذل
قهرتم بأبطال ضخام
فکم راس من الکفار أمسى
وكم نحر قلادته رماح
وكم أسرى وكم قتلى بأرض
تمر بها الطيور فتنتقيها
وأضحى الناس کلهم نشاوی
فبشراکم بهذا الفتح نور
به زادت مآثرکم علوا
ألا یا معشر الکفار هاذا
فیارب البرية یا إلهی
أثب هذا الأمير بكل خیر

وحسبک أن تیسرت الأمور
وطاعت للوبابیر البحور^(١)
وأهل الشک نیرهم ثبور
وظننت أن باعکم قصیر
وهت بالشامخات لها الصخور
على مثل العراق متى یشیر
وأبیر ولا کن لا تبیر^(٢)
إلیکم تسجیر ولا تجیر
فما اغنى الحصار ولا العبور
على الهیجاء کلهم جسر
قطیع الرأس مجروراً یخور
وسر الرمح مرکزہ النحور
وكم جرحى دمائم تفور
وبات الذیب وهو لها شکور
على طرب وما شربت خمور
وبشراکم بما من الغفور
وقد عظمت به لکم الأجور
...ولیس له قثور
ویا رحمان یا نعم المجیر
ولا تجعل تجارته تبور

(١) الشمندفیر كلمة أصلها فرنسی (chemin de fer) وتعني القطار، أما الوبابیر فهي جمع بابور وتعني السفينة البخارية.

(٢) تسلية يعني بها مدينة تساليا باليونان.

وابق الملك فيه وفي بنيه ولو كرهت زيود أو عمور
ونحن رعيّت نرجو هناء وبالسُلطان تنتظم الأمور
وقاصدكم بهذا الدر نظاماً هو الحنفي في الكنف المجير
وهو محمد التادلي أسما يقول وذا رباط الفتح كور
بأقطار الغرب فيما بين فاس ودار الملك مراکش الشهير
وصلّى الله ناصره جهاراً على الهادي صلاة تستنير
وعم الال والإسلام طرا بنصر انه المولى النصير
شيخ الإسلام المغرب الحنفي محمد ابن محمد
التادلي بقرية الرباط فيما بين مراکش وفاس لطف
الله به آمين في ٢٩ رمضان سنة ١٣١٥هـ.

٢ - رسالة الشريف محمد بن عمر إلى السلطان عبدالحميد الثاني:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تسليماً

أدام الله العز والنصر والتمكين والخير والظفر والفتح المبين لمولانا
أمير المؤمنين، ناصر الملة والدين، وحامل راية المسلمين، قاهر المعادين
ومبيد الكافرين، الغازي في سبيل رب العالمين، سلطان البرين والبحرين،
وخديم الحرمين الشريفين، السلطان عبدالحميد لازالت عاقبة سيدنا
محمودة، وسلام تام على مقام سيدنا العالي بالله ورحمت الله تعالى
وبركاته ما دامت غدوات الدهور وروحاته، بعد تقبيل حاشية البساط
الشريف دامت بالله سعادته، يُنهي لشريف علم سيدنا أعلا الله كلمته أني
شريف من أبناء عم سيدنا ومولانا السلطان عبدالعزيز أدام الله أيامه،
ومتولياً النقابة على أبناء محمد الشرفاء العلويين الكائنين بمدينة سلا في
عهد سيدنا المقدس بالله سيدنا ومولانا الحسن بل الله عليه سبحانه

الرحمات كما تقف عليه بالكتابين الشريفين طيه^(١)، وكان رحمه الله أسهم لنا عوايد سنوية، وهي مد من القمح سنوي لنا، والكسوة لنا ولعيالنا وإمائنا، وصلة قدرها ٩ ريالات، وراتب شهري قدره نصف ريال، وذلك كله لا يفي بالمؤنة لأن لنا من العيال ما ينيف على العشرين نفرا، وإنما هو إعانة من مولانا، واستمر قبضنا لذلك من نجله السلطان مولانا عبدالعزيز، إلى أن انقطعت عنا عام ١٣١٨ إلى الآن، عدا عام ٢٢ وعام ٢٤ قبضناها من أمناء سيدنا بمرسى العدوتين أي رباط الفتح، وتراكت علينا ديون لأجل انقطاع عوايدنا في كل جانب، ولم يتبق لنا إلا نصب الأقرباء بالأزقة للسعاية، ولم أدر أين يكون المفر إلا لله وباب سيدنا، وتعلقنا بالوزراء والوسائط كم من مرة بعدما كتبت لسيدنا ولنايب المخزن الحاج محمد الطريس فنفذ لنا السنتين المذكورتين، وبقيت بكناش سيدنا عند أمناء مرسى العدوتين أربع سنين يجب لنا منها نحو اثنتي عشرة مائة ريال^(٢)، وعجزنا وغلبنا الحياء من أولادنا لشدة ما نحن فيه من ارتفاع

(١) لم أجد هذين الكتابين مرفقين بهذه الوثيقة، وقد يكونان قد وضعا في تصنيف آخر، ولم أتمكن من العثور عليهما. وهذا الأمر كثيرًا ما يواجه الباحث المتعامل مع وثائق الأرشيف العثماني، إذ ترد أحيانًا إشارات في الوثائق إلى وجود مرفقات معها، لكن لا يجد الباحث هذه المرفقات، وربما يجدها في تصنيف آخر، وقد مر علي نماذج منها، مثل اتفاقية البريمي التي عقدتها الدولة السعودية الثانية وسلطنة مسقط وعمان، حيث وردت الإشارة إليها في رسالة محمد بن رشيد أمير حائل إلى السلطان عبدالحميد الثاني مؤرخة في ٧ ربيع الأول ١٣٠٦هـ، وهي محفوظة في الأرشيف العثماني تصنيف Y.EE 138/26، لكن لا يجد الباحث أثرًا لهذه الاتفاقية في هذا التصنيف، إنما يجدها في تصنيف آخر هو (Y. PRK. UM 12/60)، وللتفصيل انظر: انظر: العنقري، حمد بن عبدالله: «اتفاقية البريمي بين الدولة السعودية الثانية وسلطنة مسقط وعمان (١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م)»، مجلة الدارة، س ٣٣، ع ٣، (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م)، ص ١١٠-١١٦.

(٢) أي ألف ومئتي ريال.

الأسعار والغلاء وتردد أرباب الديون لنا، ولا زلت بهذه الحالة متأمرا على الشرفاء، إلى أن ألهمني الله للتعلق بمحياكم والتشبث بأذيالكم، فبادرت إلى الاعتراف من بحركم الذي لا يكدره الدلاء فيما نؤمله من مجادتكم الفخيمة من قضاء الدين عنا، والجبر لكسرنا، وفرمان من سيادتكم أي: ظهير شريف مثل ما بطيه تسبل فيه علينا وعلى أولادنا ومن تعلق بنا أردية التوقير والاحترام^(١)، نتخذها لنوائب الزمان وافتخارا به على الأقران حتى لا يحوم حمانا شيطان، وإن لم ترفع قضيتنا إليك فلمن نرفعها قال الشاعر:

وإنما يرفع الأمر الكبير الشيء الطود العظيم وانت الله عطاك وورد في الحديث الشريف عن مولانا رسول الله ط أنه قال: من قضى لأخيه المسلم حاجة من حوائج الدنيا قضى الله له سبعين حاجة يوم القيامة^(٢)، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وعلى الدعاء والخدمة لسيدنا طالبين رضاه، والسلام في ٢٥ شعبان الأبرك عام ١٣٢٤.

نقيب الشرفاء بمدينة سلا الشريف
محمد بن عمر عامله الله بمئه...

(١) درج سلاطين المغرب العلويين على منح ظهائر تتضمن لحاملها الأمر بتوقيره واحترامه وعدم التعرض له بشيء.

(٢) لم أجد أي أثر لهذا الحديث بهذا اللفظ في مصنفات الحديث النبوي الشريف، والصحيح للصحة لهذا الحديث هو ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة». الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٢/ ٣١.